آثار الشرق القديمة

مدرسة موسى عليه السلام

﴿ هيكل سيتي ﴾

وصف التعليم في المدارس المصرية القديمة وعلاقتها بالهياكل وظهور الوحدانية بعد تعدد الآلهة

مما اشتهرت به مصر في الزمن القديم مدارسها التي كانت المدارس المنظمة الاولى التي نشرت في العالم نور المدنية والعلم . ولقد ورد ذكر هذه المدارس في رواية وردة التي وضعها الدكتور جورج ايبرس المستشرق الالماني الشهير ووعدنا القراء بتلخيصها في بعض الاجزاء السابقة . فانجازاً للوعد نذكر ما ورد في هذه القصة المفيدة عن مدرسة بيت سيتي التي يقول المؤلف ان موسى الكليم نبي بني اسرائيل قد ربي وتثقف فيها . وقد استخرج المؤلف هذه الفوائد من الآثار القديمة واوراق البردي .

وكانت المدارس في ذلك الزمن مقرونة بالهياكل كما يقرنها المعاصرون اليوم بالكنائس والجوامع . وقد بدأ المؤلف قصته بوصف بيت سيتي (هيكل القرنة) لان اهم حوادث الرواية مبنية على رئيس الكهنة الذي يقيم في هذا الهيكل . وكان هذا الهيكل اعظم هياكل طيبة في زمن هذه القصة اي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وقد شرع في بنائه رعمسيس الاول واتمه سيتي الاول فسمي باسمه

« وقد خصص الملك مرتبات وافرة من المال لهذا الهيكل والمدرسة الكبرى والمدارس العديدة الصغرى التابعة له وانصرفت العناية الى انشاء هذه المدارس على مثال مدارس هيلوبوليس (١) ومنفيس لمنافستها في ميادين العلوم والمعارف حتى تفوق طيبة التي جعلت وقتئذ عاصمة مصر العليا (الصعيد) شأو مدائن مصر السفلى (الوجه البحري) التي كانت في ذلك العهد مركز دائرة العلوم ومنبعث انوار العرفان »

وكانت المدارس التابعة لبيت سيتي تمتاز « بوجود مدرسة عالية فيها يتلقى فيها نجباء

(١) عين شمس وهي قرب القاهرة

الطلاب علوم الدين والطب والحقوق والرياضة والفلك والنحو الخ على علماء تضلعوا في هذه الفنون » وكان عدد التلامذة في كل مدرسة مائة تلميذ « ولا يُقبل فيها غير ابناء الوطن الاحرار بلا فارق بين غني وفقير او عزيز وحقير على شرط ان يدفع اهلهم او اولياء امرهم مبلغاً محدوداً في مقابل ما يتناولونه من الغذاء . وكان التلامذة الداخلية من ابناء الاكابر والاعيان يقيمون في مكان مخصوص حيث يكونون تحت مراقبة الكهنة . وكان التلامذة يعاقبون بالضرب بالعصي حيث كانت هذه العقوبة شائعة في المدارس كما يدل عليه المثل السائر في ذلك العهد « ان آذان التلامذة في ظهورهم فهم لا يسمعون الا اذا ضربوا »

« وكان يوجد عدا هذه المدارس مدارس الفنون والصنائع التي كان الطلاب يتلقون فيها ما يلزم من العلوم لتخريج مهندسي العمارات والنقاشين والمصورين . ونظام التعليم فيها هو بذاته في الاولى اي ان التلميذ يختار المعلم الذي يامل بالتلقي عنه الوصول الى ذروة التقدم والنجاح . وكان يبلغ عدد الاساتذة كلها ٨٠٠ استاذ تخرجوا باجمعهم من بيت سيتي وينقسمون الى خمس درجات ويرجعون في امورهم الى ثلاثة رؤساء يسمون (الانبياء) وكان اول هؤلاء الانبياء مرتبة وارفاهم درجة في العلوم والفنون رئيس كهنة بيت سيتي وكبير قسوسها »

اما بيت سيتي نفسه فقد كان بناء «وطيد الجدران يصل الانسان اليه من طريق قويم آخذ من ضفة النيل الى باب السور المحيط به . فاذا دخل من هذا الباب وجد نفسه في فناء واسع يحيط به من الجهات الاربع صفان متوازيان من الاعمدة الضخمة . وشاهد امامه حيال الباب الذي دخل منه باباً آخر صرف المهندسون حذقهم في تنسيقه وتنميقه . والى جانبه هرمان ناقصان قد زادا في جمال الهندام وبهجة المنظر . وهذا الباب يوصل الى فناء ثان يشبه الاول في اتساعه وشكله لكنه لا يوجد به سوى صف واحد من الاعمدة في الجهة المقابلة للمدخل الذي اتينا على وصفه »

« وكان يوجد خلف بيت سيتي منازل كبيرة اشبه في شكلها بالمكعب مبنية بالطوب النيء المتخذ من طمي النيل ومطلية من الخارج بطبقة من الجير قد رسمت عليها الصور والنقوش الهيروغليفية . وتلك المنازل كانت معدة لاقامة الكهنة والعلماء المدرسين . وكان نظامها الهندسي من الداخل واحداً لاحتوائها على فناء تحيط به ممشاة طويلة من الخشب توصله الى حجرات الاساتذة وفي وسط الفناء نافورة ينبط منها الماء على الدوام في حوض تحيط به شجيرات الازهار وتنصرف منه المياه في مسارب متعددة حتى لا تبقي فيها آسنة .

اما الطلاب فكانوا يقيمون في الطبقة العليا من هذه المساكن ويتلقون الدروس في فناء غير هذا الذي وصفناه جالسين فوق حصيرة مبسوطة على الارض »

« وكان مسكن كبير الانبياء الثلاثة ورئيس كهنة بيت سيتي قائماً على مسافة مائة خطوة خلف هذا البيت تكنفه من الجانبين اشجار ذات ظلال وكان يعرفه القصاد من بعيد بالاعلام الكثيرة التي تخفق فوق سطوحه وكان الانبياء لا يقصدونه الا لاداء الواجبات المفروضة عليهم نحو النبي الاكبر ثم ينصرفون الى طيبة الاحياء حيث يسكنون في منازل خاصة بهم مع عائلاتهم »

اما حجرة رئيس الكهنة في هذا الهيكل فاليك وصفها « كانت هذه الحجرة من اوسع حجرات الهيكل واحسنها شكلاً حيث كان نصفها الاسفل الى ما يوازي ارتفاع القامة مكسوًا بمربعات من الخزف والباقي مزيناً بالصور والنقوش العجيبة وكان لا يوجد بها من المتاع سوى مائدة كبيرة وسرير للاضطجاع عليه متكأ من سن الفيل مصنوع على شكل الهلال وفروة فهد ومقعد صغير وكراسي عديدة وخزانة فيها اوان من معدن وقدور من صلصال واخرى تحتوي على قنينات وقوارير من زجاج وغير ذلك من العلب المختلفة الاشكال والاقدار وكثير من محار البحر · يضيء هذا كله ثلاثة مصابيح مملوءة بزيت الخروع تشبه الطيور في صورتها »

واما لباس رئيس الكهنة فاليك صفته « كان لباس الرئيس ثوباً من التيل ناصع البياض كثير الثنيات سابلاً الى كاحل القدم عليه وشاح ذو اهداب مسترسلة يحيط بخاصرته معقود من الامام في نقطة ينسدل منها طرفاه الى ما يوازي الركبتين وتماسك اجزاء هذا الثوب الكهنوتي بحمائل من المقصب · وكان بعنقه عقد من اللؤلؤ والاحجار الكريمة على شكل قضيبين من سعف النخل متقاطعين من اسفل وبمعصميه دملجان عريضان من الذهب الابريز »

اما المعبد في هيكل سيتي فقد ورد وصفه في الاسطر التالية « وكان المدخل الاكبر للهيكل مفتح الابواب بحيث يري الواقف امامه ما يليه من فناء المذبح المبلط بالمرمر الصقيل وحوله ثلاثة صفوف متوازية من الاعمدة الضخمة الراسخة على قواعدها المتينة فينبهر من تناسق النقوش التي غطيت بها الجدران والافاريز والاعمدة وتيجانها وما جمعت من جمال الهندام وحسن النظام ويرى في وسط ذلك الفناء مذبح القرابين وحوله المباخر المعدة لاحراق كرات الريفي (نوع من البخور) تسطع منها الروائح العطرة فتملأ رحب المكان

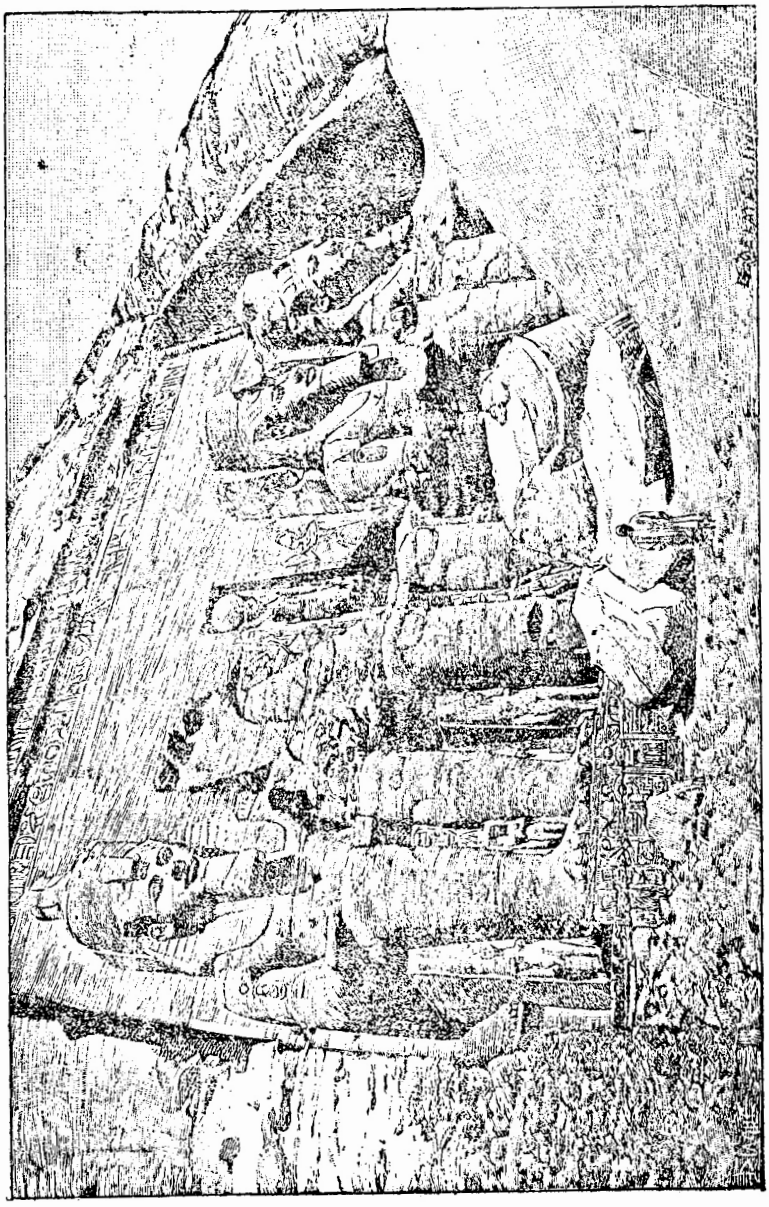

﴿ تماثيل بعض الفراعنة منقوشة على جدار في هيكل سيتي ﴾

وتستميل من يستنشقها الى سنة من النوم »

« وكان الاهالي يجهلون ما يقع بداخل الهياكل من الرسوم الدينية لانها كانت محاطة باسوار عالية فيها ابواب لا تفتح الا للكهان ساعة خروجهم الى الخلوات جماعات متتابعات في وقت شروق الشمس وغروبها للتغني بالاناشيد الدينية تعظيماً وتبجيلاً للالهين هوروس وطوم (١) »

« وكان كثيرون من كهان بيت سيتي يزاولون حرفة الطب لانهم بعد اتمام الدراسة في هذا البيت واحرازهم رتبة الكاهن او درجة العالم كان من يريدون منهم النبوغ في علوم الطب يذهبون الى مدينة هليو بوليس (عين الشمس) حيث كانت توجد اقدم واكبر مدرسة طبية في الديار المصرية » وبعد اتمامهم دروسهم في هذه المدرسة الكبرى يعودون الى طيبة ويقيمون فيها « تابعين لنظام الكهنوت بمعنى انه اذا مست الحاجة الى طبيب فلا يطلبه الراغبون من منزله بل من هيكل سيتي حيث يقابلون رئيس الاطباء ويخبرونه باسم المريض ويصفون له اعراض مرضه فيرشدهم الى الطبيب المنقطع لعلاجه »

ذلك ان كل واحد من الاطباء المصريين القدماء كان ينقطع الى فن واحد من فنون الطب كالجراحة مثلاً او امراض العيون او غير ذلك ليبرع فيه براعة تامة . « وكان الاطباء كالكهنة يعيشون من ايرادات الاملاك الموقوفة للهياكل والضرائب المفروضة برسمهم على الاهالي والنذور التي يقدمونها الى الآلهة ولذا كانوا لا يقبلون من احد جزاء (اي اجرة) مقابل علاجهم لمرضه لان المريض كان اذا شفي من الاسقام التي اصابته بعث بالنذور والهدايا الكثيرة الى الهيكل الذي ينتمي اليه الطبيب الذي نجح في معالجته . وكان من العقائد الراسخة في اذهان العامة وقتئذ ان الشفاء من المرض يتوقف على النذور والقرابين اكثر منه على مهارة الطبيب . ومن الحقائق المقررة في التاريخ ان قدماء المصريين بلغوا في المعارف الطبية شأوًا بعيدًا »

اما التلامذة في بيت سيتي فانهم بعد نيلهم « مرتبة عالم فقيه او كاتب نبيه لهم ان يتفرغوا للكسب بمعلوماتهم وكانت لهم في المدرسة دار للكتب عظيمة الاتساع بها الوف من

---

(١) يشبه قدماء المصريين حياة الانسان بالشمس في مسيرها فشروقها رمز الطفولية وتسمى فيه (هوروس) وبلوغها الاوج رمز الفتوة والشباب وتسمى عنده (را) وافولها رمز الشيخوخة والهرم وتسمى فيه طوم) (حاشية للمعرب)

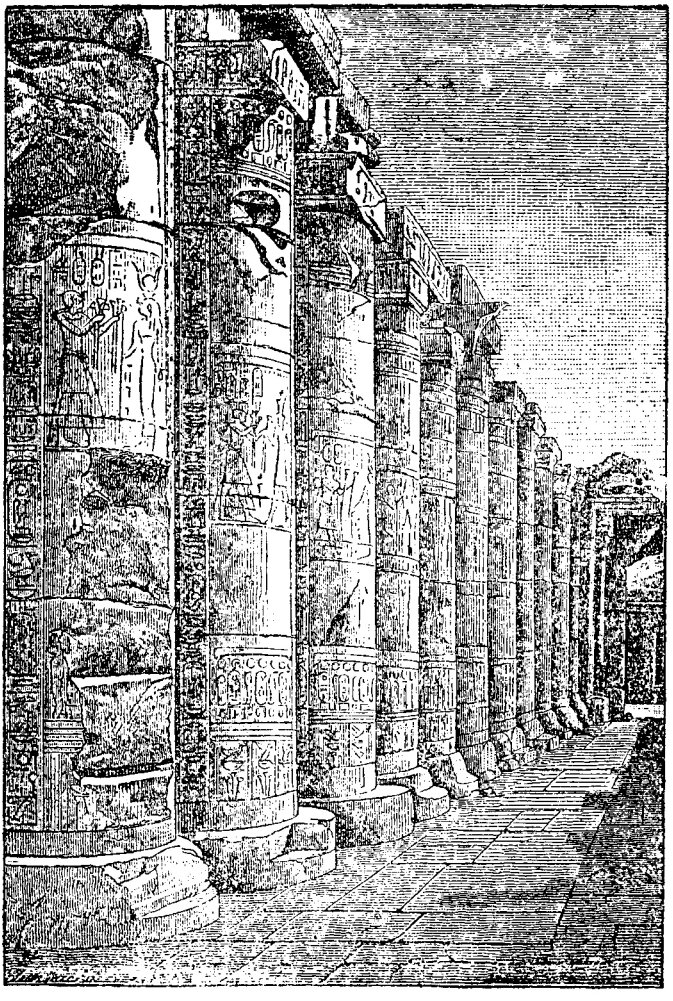

﴿ احد جدران الهيكل الداخلية ﴾

المؤلفات النفيسة المكتوبة بخط اليد يرتبط بها معمل لصناعة ورق البردي (الذي كان يكتب عليه المصريون يومئذ) وكان البعض منهم تناط به ادارة المدارس الملحقة بتلك المدرسة العليا »

وكل هذه القصة التاريخية الجميلة مبنية على المسالة الدينية . فان رئيس كهنة بيت سيتي الذي كان في قبضته السلطان الديني الاعلى كان شديد الحفظ للتقاليد الدينيـة حتى

انه اجتراءً على طرد ابنة رعمسيس من هيكل سيتي لانها رامت الدخول اليه وهي نجسة . وما الذي كان سبباً في نجاستها ؟ السبب هو انها بينما كانت قرب طيبة تسوق خيلاً جاءتها من الشام واذ داستْ الخيل ابنة احد دافني الموتى . فذهبت ابنة فرعون الى كوخ هذه الفتاة لتفتقدها وتعزيها . فمنذ ذلك الحين اصبحت نجسة لمخالطتها دافني الموتى . ولما جاءت هيكل سيتي طردها رئيس الكهنة بقوله على لسان المؤلف « اعلمي يا بنت اناتان القصور الباذخة التي شادها والدك ونضد ابنيتها على اجمل هندام انما هي قائمة على اعناق افراد الامة المصرية فاذا فككتِ عقال النقاليد القديمة التي تربط هولاء الافراد فلا مناص من التخازل والتدابر المفضيين بلا ريب الى تداعي تلك الجدران »

اما الشاعر بنطاوءر تلميذ رئيس الكهنة فانه قال له « ان الاله (را) الذي يجوب السموات العلى في زورقه الذهبي يبعث اشعته الشمسية الى اكواخ الفقراء كما يبعثها الى قصور الفراعنة ودور الاغنياء بلا فارق ولا ميز فلماذا تكون بيوت هولاء مطهرة واكواخ اولئك مدنسة »

فاجاب رئيس الكهنة « الا تدري ان العلم يشبه النار . اذا وجدت بيد من يحسن تدبيرها والتصرف فيها نفعته واذا وجدت بيد طفل — والشعب يبقى دائماً في دور الطفولية — احدثت حريقاً يلتهم كل ما شُيد في الازمان الغابرة من جميل الآثار وحميد الفعال . وقد كانت جذوة النار التي اوردتُ لك ذكرها على سبيل المجاز موجودة بين جدران من النحاس يمرّ الشعب من جانبها بدون علم بها . اما اليوم فقد رايتُ ثلمة في هذه الجدران . ونحن نستنزل اللعنات على الكهان الذين يزيدون تلك الثلمة اتساعاً »

ولكن هذه الثلمة لم تلبث ان زادت اتساعاً لان العقل البشري كالبخار اذا ضغطته وزدتَ الضغط فجر الآلة وكسرها تكسيراً ولذلك لم يلبث ان قام من قدماء المصريين نشأة جديدة نبذت عبادة الآلهة المتعددة كالشمس والكلاب والسمك والقطط والعجول وعرفت الاله الواحد . وكان الشاعر بنطاوءر الذي تقدم ذكره من تلك النشأة الجديدة . وفي ذلك يقول المؤلف قبل ختام القصة في فصل عنوانه « اين يجد المرء ربه » ما ملخصه

وقف بنطاوءور بعد خلاصه من الاسر على هضبة ضيقة امام جبل سيناء قبل شروق الفجر فراى « بريق الكواكب الساطع يبهت شيئاً فشيئاً تلاشياً وتفانياً امام ضوء الفجر المنبلج » « وما زال الليل يولي الادبار حتى سطع النهار وارتسمت في العيون قمات تلك الجبال تتسحب فوقها السحب كدخان يتصاعد من بورة النار » « ولم يكن بها من دلائل الحياة

غير نسر كان يحلق بجانحيه العريضين حول بنطاوءر وهو يتامل في عجائب الخليقة واسرار الكائنات من تلك القمة العالية » ثم « هب نسيم لطيف انقشع بسببه الضباب الذي كان كحجاب يحجب النظر عن رؤية الوادي وانبعثت اشعة الشمس من وراء الافق فكللت هام جبل سيناء بتاج من الذهب » فصاح حينئذ بنطاؤر : انت الواحد الاحد انت الواحد الاحد

ثم التفت فابصر وراءه شيخًا طويل اللحية جليل المنظر فقال له « لقد عرفتك فانت ميسو (١) وسبب معرفتي لك انني كنتُ طفلاً في (بيت سيتي) اتلقى المبادىء حينما تخرجت انت منه نابغًا في العلوم والمعارف . وقد اطلعني اميني (رئيس الكهنة في بيت سيتي) كما اطلعك على سر الاعتقاد بوجود اله واحد . فقال ميسو وقد نظر بعين التامل والاعجاب الى الافق الذي كان يزداد سطوعًا من جهة الشرق : اما اميني فلا يعرف من الاحدية شيئًا » وعند ذلك برزت الشمس من وراء حجاب الافق « فاول حركة بدرت من بنطاوءر (بطل الرواية) (٢) ان استقبلها بوجهه وبدأ في الصلاة . فلما انتهى منها شاهد ميسو يصلي ايضًا غير انه كان مستقبلاً الغرب ومستدبرًا الشرق . فلما اتى على آخر صلاته ساله لمَ استدبرت وجه الشمس ونحن انما قد تعلمنا كلانا في المدرسة وجوب استقباله بمجرد اشراقه . فقال ميسو : اني اعبد الهًا غير ما تعبد . الشمس والكواكب مسخرات لامره . فقال بنطاوءر ارشدني الى طريق هذا الاله القادر . فقال ميسو : ابحث عنه تجده لانك كابدتَ الآلام وقاسيتَ مشاق المتربة . واعلم انه تجلى لي في مكان مثل هذا وفي صبيحة يوم كهذه — قال هذا وذهب في سبيله »

---

(١) ميسو هو موسى باللغة المصرية القديمة . وحوادث هذه القصة حدثت في عهد رعمسيس الثاني الملقب بالكبير (سيزوستريس) وكان موسى معاصرًا له فيما يقال وفي عهد خلفه خرج الاسرائيليون من مصر على ما هو مشهور

(٢) كان الشاعر بنطاوءر من شعراء الملك رعمسيس حقيقةً وقد نشرنا كتابًا بشانه في الجزء الاول من السنة الثالثة الصفحة ٥٥